

سلسلة بحث وتألیف

(١)

فقهاء الْمُلَكَّـةِ الْمَسْـبَعِـجَـلِـةِ

(٣) أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث

تأليف

عبد المنعم الهاشمي

دار ابن لئير

دمشق - بيردات

www.dawahmeme.com

١٤٢٢ هـ - ١٩٩٣ م

- ١ -

راهب قريش

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آتَيْنَا وَعْدَنَا الصالحاتِ إِنَّا لَا
نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يَحْلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَرَيْلَسُونَ ثِيابًا
خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَرْقٍ مُتَكَبِّنْ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعْمَمْ
الثَّوَابَ وَخُسْنَتْ مُرْتَفَقًا﴾^(١).

أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث . . . تستهله بإطار
يحيط بالصورة، فالإطار إجمال، والصورة مفصلة، إنه الفقيه،
الوجيه، العايد، النبي، والعائد الأول لربه في قريش في
عصره، كان يقال له راهب قريش لكثرة صلاته . . . كان ممن
يقيمون الصلاة في الليل والنهار فرضاً ونافلة فاستحق بحق
لقب راهب قريش؛ لأنَّه كان ممن أطاعوا الله عز وجل حين
قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِ النَّهَارِ وَرُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ
الْحَسَنَاتِ يَذْهَبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾ واصبر فإنَّ
الله لا يُضيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢).

(١) الكهف الآيات: ٣٠، ٣١.

(٢) سورة هود الآيات: ١١٤، ١١٥.

كان رحمة الله ممن جمع العلم والعمل والشرف، وكان من سادات قريش المشهود لهم بالشرف والمكانة، فكان هو وإنحوته مضرب الأمثال بين الناس في العلم والمكانة والشرف، وهو أحد أئمة المسلمين بعد عصر المهاجرين والأنصار فأصبح من الذين اتبعوهم بإحسان فهو تابعي ثقة، والآن هيا إلى الصورة كاملة.

- ٤ -

بطاقة تعريف

نسبة: هو أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، الإمام، أحد الفقهاء البعثة بالمدينة المنورة، وهو من سادة بنى مخزوم. تزوج وأنجب ذرية صالحة منها البنون وهم: عبد الله، وسلمة، وعبد الملك، وعمر، وعبد الله، وعكرمة، ومحمد، ومغيرة ويحيى، ومن البنات: عائشة، وأم الحارث.

كان ضريراً ولكنه شق طريقه إلى العلم يتصرّل بصيرته تاركاً بصره كما أراده له الله فقد عوضه خيراً عما فقد.

كان محدثاً مشهود له بكثرة الرواية فقد حدث عن كثير من أوائل الصحابة، منهم: عمار بن ياسر، وأبو مسعود الأنصاري، وعائشة أم المؤمنين رضوان الله عليها، وأم سلمة زوجة الرسول ﷺ، وأبو هريرة، وأسماء بنت عميس زوجة

جعفر بن أبي طالب، وغيرهم مما لا يتسع المكان لذكرهم.
وقد حدث عنه: عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين وأبناؤه،
وابن شهاب الزهري، وغيرهم من الرواة.

كان يجمع بين دقة الرواية وصدقها، والتخرير والإفتاء
بالرأي، وكان شيخاً من شيوخ الفقه المدني؛ الذي كان مبنياً
على الرأي وتمحیص الرواية وتخرير الحديث. كان رضوان الله
عليه صاحب منهج كما كان أصحابه في الفقه يتخذ الرأي
والآخر، ويفتي المسلمين فتيا العالم، فداع علمه، وازدحم
مجلسه، ودون فقهه، وأخذ عنه تلاميذه الاجتهاد فيما روى
وأفتى . .

- ٣ -

حَلْمِه

كان لأبي بكر رأي في العلم ربما لو سقنا هذا الرأي لعرفنا
كيف كان الرجل يفكر ويتعلم، وما هو منهجه في العلم ونظرته
إليه. لقد قال:

العلم لواحد من ثلاثة: الذي نسب يزئن به نسبة. أو الذي
دين يزئن به دينه. أو مختلط بسلطان يتجمع به^(١).

ولو نظرنا للشرط الأول نجد أنه ينطبق على أبي بكر رضوان

(١) صير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٤١٦، ٤١٨

الله عليه فهو كما وصفته كتب السير والتاريخ أنه سيد في قومه، وسيد من سادات قريش؛ فالآب وهو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام؛ مخزومي من بطون قريش، وأمه أيضاً مخزومية فهي سارة بنت هشام بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم؛ مخزومية قرشية أيضاً.

والشرط الثاني الذي قال فيه «الذى دين يزئن به دينه» فيكتفى ما تُسب إليه من كنيه ولقب مشهور يقترن باسمه، فلقد سُمِّي واشتهر براهب قريش لكثرة صلاته ولفضله.

كان من أكثر حفاظ الحديث في المدينة، ومن أكثر الناس عملاً بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لذلك يقال عنه إنه كان ثقة فقيهاً كثير الحديث عالماً عاقلاً عالياً سخياً.

كان أبو بكر يفتني برأيه إذا لم يجد نصاً ولا فتوى صحابي، ولكنه مُقلٌ في الاجتهاد لا يطلق فيه أيضاً إذا لم يجد ما يعتمد عليه من كتاب أو سنة أو أثر يقياس عليه منهجه؛ منهج إخوانه فقهاء المدينة السبع رضوان الله عليهم أجمعين.

كان يرى أن الإفتاء بالرأي أو فقه الرأي يحيى عند المصلحة، أو يسير على منهاج المصلحة مصلحة الأمة، فهو - أي الإفتاء بالرأي - لا يتحقق إلا من الواقع، ولا يصلح فيها الفرض والتقدير.

لقد كان أبو بكر من رجال الفقه في المدينة الذين أخذوا

بالحديث والسنّة، ومن الذين أخذوا بالرأي، ولذلك تكونت بالمدينة مدرسة فقهية لها خواصها، في حين تكونت بالعراق مدرسة فقهية لها خواصها أيضاً، ومكة وغيرها من بلاد المسلمين التي تم فتحها وخرج إليها الصحابة وعاشوا فيها أمداً طويلاً كالبصرة والكوفة، وفي ذلك نجد أن أهل العراق أو شيوخها يعتبرون أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إمامهم، فأكثر روایتهم عنه، وعن علي بن أبي طالب، وغيرهما من كبار الصحابة الذين أقاموا بالعراق أمداً طويلاً.

وقد قال أحد العلماء في اختلاف المدارس الفقهية وأثر فقهاء المدينة في ذلك: «صار لكل عالم من علماء التابعين مذهب على حاله، فانتصب في كل بلد إمام مثل سعيد بن العسيب وسالم بن عبد الله بن عمر بالمدينة وبعدهما الزهري، والقاضي يحيى بن سعيد، وربيعة بن أبي عبد الرحمن في المدينة أيضاً؛ وعطاء بن أبي رباح في مكة، وإبراهيم النخعي والشعبي بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، وطاوس بن كيسان باليمن»^(١).

وكان أبو بكر بن عبد الرحمن واحداً من هؤلاء التابعين، وشيخاً ومعلماً لبعضهم مما تعلموا الفقه في المدينة، وأثروه عن غيره رضوان الله عليهم أجمعين وعلى الرغم من أنه كان ضريراً إلا أنه أصبح صاحب مجلس علم كبير بالمدينة سعى

(١) الإمام الذهلي في كتابه حجة الله البالغة ج ١ ص ١٤٣.

إِلَيْهِ الرَّاغِبُونَ وَالظَّامِنُونَ إِلَى عِلْمِهِ وَعِلْمِ أَصْحَابِهِ مِنَ الْفَقِهَاءِ
الْأَجَلَاءِ، وَأَخْدُوا عَنْهُ الْحَدِيثَ وَفَتاوِي الصَّحَابَةِ وَأَفَاوِيلِهِمْ،
«وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ وَأَصْحَابَهُ فَقِهَاءَ الْمَدِينَةِ السَّبْعَةَ يَذْهَبُونَ إِلَى أَنْ
أَهْلُ الْحَرَمَيْنِ أَثْبَتُ النَّاسَ فِي الْفَقَهِ، وَأَصْلَلَ مَذْهِبَهُمْ فَتاوِي عَبْدِ
اللهِ بْنِ عُمَرَ، وَعَائِشَةَ، وَابْنِ عَبَّاسٍ وَقَضَائِيَا قَضَاءَ الْمَدِينَةِ،
فَجَمِعُوا مِنْ ذَلِكَ مَا يَسِّرُ لَهُمْ، ثُمَّ نَظَرُوا نَظَرَةً اعْتِبَارَ
وَتَفْتِيشَ»^(۱).

كُلُّ هَذِهِ الْأَمْرَاتِ تَجْعَلُنَا نُشَعِّرُ بِأَنَّ تَسْمِيَةَ هُؤُلَاءِ بِالْفَقِهَاءِ
السَّبْعَةِ - وَأَبُو بَكْرٍ وَاحِدٌ مِنْهُمْ رَضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَعَلَيْهِ - لَمْ تَأْتِ
مِنْ فَرَاغٍ، فَلَقَدْ كَانَ بَذَلُ الْجَهَدِ وَتَمْحِيقُ الْمَرْوَى وَهَذَا الْكَمْ
الْهَائلُ مِنَ الْحَدِيثِ الْمَرْوَى عَنِ الرَّسُولِ ﷺ يُسْكَنُ فِي
ذَاكِرَتِهِمْ، وَيُصْنَعُ مِنْهُ أَحْسُولًا فِي الْفَقَهِ وَأَبْوَابًا لِهِ شَهَادَةُ عَالَمٍ
يُعْتَزَّ بِعِلْمِهِ الْمُسْلِمُونَ فِي كُلِّ أَرْجَاءِ الْأَرْضِ. فَهُوَ عَالَمٌ سَخِيٌّ
فِي عِلْمِهِ . يُعْطِي تَلَامِيذهُ وَلَا يَنْصُبُ أَيْدِيَا وَيَأْخُذُ وَيَنْهَلُ مِنْهُ
دُونَ تَوقُّفٍ.

كَانَ كَثِيرُ الْحَدِيثِ مُعْتمِدًا عَلَى ذَاكِرَةٍ قَوِيَّةٍ حَافِظَةٍ، إِلَّا أَنَّ
تَلَامِيذهُ دَوَّنُوا الْكَثِيرَ، وَشَاعَ التَّدْوِينُ فِي مَجَالِسِ الْفَقِهَاءِ فِي
ذَلِكَ الْوَقْتِ.

وَلَقَدْ ضُرِبَ المِثْلُ بِأَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَلِأَخْوَتِهِ؛ فَقَدْ
أَصْبَحَ أَحَدُ أئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ، وَأَصْبَحَ بَيْتُهُ مَزَارًا

(۱) حِجَّةُ اللَّهِ الْبَالِغَةُ لَوْلَيَّ اللَّهِ الدَّهْلَوِيَّ جِ ۱ صِ ۱۴۳ .

للساعين للعلم ومجالسه، والراغبين في الاستفادة عن أمور دينهم وما حلّ بدنياهم من مستجدات لا بد أن تستوضح وينجلي أمرها في فتاوى أبي بكر وأصحابه الفقهاء السبعة رضوان الله عليهم أجمعين.

— ٤ —

العبد والناسك

كان رحمة الله راهباً خاشعاً في صلاته مُكثراً من نوافلها، عملاً بقول الله عز وجل: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غُسْقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ شَهِودًا﴾ * ومن الليل قتهجد به نافلة للك حسى أن يبعثك ربك مقاماً مموداً * وقل رب ادخلني مدخل صدق وأخرجنني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴿ۚ﴾^(١).

كان صواماً قواماً يصوم الدهر كله، لا يترك فرضاً إلا ولحمه بنافلة، ولا يترك سنة إلا أذاها على أكمل وجه،وها هو أحد إخوته يتحدث عنه فيقول:

كان أخي أبو بكر يصوم ولا يفطر، فدخل عليه ابنه وهو مفطر فقال: ما شأنك اليوم مفطراً؟

(١) الآيات من ٧٨: ٨٠ من سورة الإسراء.

قال: أصابتني جنابة فلم أغسل حتى أصبحت، فاقتني أبو هريرة أن أفطر. فارسلوا إلى عائشة يسألونها، فقالت: «كان النبي ﷺ تصلّى عليه الصلوة فيغسل بعدها يُصبح ثم يخرج رأسه يقطر، فيصلّي ثم يصوم ذلك اليوم»^(١).

لم تمنعه علة ولم يحل مرض بينه وبين أداء فرض الصلاة، فاحتسب كل مرض أصابه ومانع حال بينه وبين أداء فريضته عند ربه، وهذا هو إصابة بعلة في يده فعند سجوده تؤلمه أشدّ الألم فيأمر أهله بطشت ماء ثم بضع يده فيه عند سجوده. إلى هذا الحد تغلب وتجاوز أية مصاعب تحول بينه وبين ربه يؤدي فرضه عابداً ناسكاً ماجداً.

— ٥ —

الحدث

كان أبو بكر محدثاً فصحيحاً وراوياً له شأن عظيم، كان من كبار التابعين وأشراف قومه يوصف بالعقل والفضل، كما كان أبوه كذلك. ومن أشهر رواياته ما حدث به ابن شهاب الزهري عنه عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ: «نهى عن ثمن الكلب، ومهر البغيِّ، وحلوان الكاهن»^(٢).

(١) تاريخ ابن عساكر ٤٨٨، ب.

(٢) أخرجه البخاري ٤٤٦ / ٤٢٦ ومسلم ١٥٦٧، ومالك في الموطأ ٢/ ٦٥٦، وابن ماجه ٢١٥٩، والناتي ٤٦٧٠.

وحلوان الكاهن هنا: هو ما يأخذه المتكهن أجرًا لكهانته، وقيل الكهان والتنجيم والضرب بالحصى وغير ذلك مما يتعاطاه العرافون والمشعوذون من استطلاع الغيب، حرام وباطل، لا يجوز لأحد أن يأتي أمثال هؤلاء فيسألهم أو يصلق مقالهم، وقد جاء الحديث السابق برواية ابن شهاب عن أبي بكر أيضًا بلفظ يزيد في البداية فهو كما يلي:

عن ابن شهاب، عن أبي بكر أن أبو مسعود عقبة بن عمرو حدثه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث هن ستحت: ثمن الكلب، ومهر البغي وحلوان الكاهن»^(١).

ومن أشهر روايات أبي بكر أيضًا عن ابن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنني لاستغفر لله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرّة»^(٢).

رحم الله فقيه المدينة فقد كان راوية ومحدثاً كبيراً.

ولقد وردت في معظم المسانيد وكتب الحديث المشهورة روايات عن أبي بكر بن عبد الرحمن رضوان الله عليه، وكان معظمها عن عائشة وأبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين.

كان عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين في حياة فقيهنا

(١) التخريج السابق.

(٢) الخلية لابن نعيم ج ٢ ص ١٨٨.

وشيخنا أبي بكر بن عبد الرحمن رضوان الله عليه محبًا له، يكنى
له احترامًا دافعه علمه وتقواه، وليس بعد ذلك من سبب إلا أن
أبا بكر رجل شريف سيد في قومه، راهب فريش كما كان يطلق
عليه عامة الناس والفقهاء من تلاميذه وأصحابه التابعين الثقات.

وكان هناك من لا يحببني أمية كثيراً في المدينة ممن
يقطنها من رعية المسلمين الذين عاصروا الفتنة، وتباين الآراء
على أواخر عهد خليفة رسول الله عثمان بن عفان رضي الله عنه
وخليفته علي بن أبي طالب رضوان الله عليه.

لذلك كان الشعرو متادلاً بينهم وبين عبد الملك بن مروان،
وكان كثيراً ما يهمّ بتأديب هؤلاء وهؤلاء من معارضيه إلا أن
جوار رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه وحياته من شيوخ المدينة وفقهائها وعلمائها
كثيراً ما كان يمنعه. وكان لأبي بكر بن عبد الرحمن فقيه
المدينة وشيخها مكانة عظيمة عند عبد الملك فأوصى أبناءه
بإكرامه، وبالغ في إكرامه ومما جاء في ذلك من مكانة الرجل
عند أمير المؤمنين أن قال عبد الملك بن مروان ذات يوم:
«والله إني لأهم بالشيء أفعله بأهل المدينة لسوء أثرهم علينا،
فاذكر أبا بكر بن عبد الرحمن فاستحي منه فادع ذلك
الأمر»^(١).

هكذا كان أمير المؤمنين يستحي من شيخها وفقهائها فيترك

(١) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٢٠٧.

أمراً أقره في نفسه ورغبه هو إكراماً لرجل علم ومحدث وفقيه، وأبو بكر رضوان الله عليه أهل لهذا الإكرام، فكيف تُستباح مدينة رسول الله، وبها جثمانه الطاهر، وكيف يصيّب أهلها سوء ويسكّنها أبو بكر بن عبد الرحمن أحد فقهائها السبعة رضوان الله عليهم.

- ٦ -

وداعاً راهب قريش

وفي يوم من أيام العام الرابع والتسعين من الهجرة، والتي يقال لها سنة الفقهاء لكثره من مات منهم. في هذا اليوم صدح المؤذن بالأذان لصلة عصر هذا اليوم، فتوخاً واستغفر وكبر وصلّى العصر بالناس في مسجد رسول الله بالمدينة، وانتهت الصلاة، وراح يقول لاصحابه وتلاميذه: «والله ما أحدثت في صدر نهاري هذا شيئاً»^(١).

وكرر قوله هذا، ثم عاد إلى بيته ودخل مغسله فسقط مغثياً عليه، فالتف حوله أبناءه وأهل داره وإنحوه ممن نهجوا نهجه في الحديث والفقه وحملوه إلى فراشه، وقبل أن يؤذن المؤذن لصلاة المغرب في مسجد رسول الله، نادى مناد في المدينة يسترجع ويقول إنما لله وإنما إليه راجعون، مات أبو بكر بن عبد

(١) سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٤١٩.

الرحمن بن الحارث رحمة الله تعالى عليه، وصعدت روحه
 ترفرف في رحاب الصديقين وفي صحبة ساكني جنات
 النعيم، في صحبة المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم
 بإحسان إلى يوم الدين، وحسبي أن تلاميذه أدوا صلاة المغرب
 دون شيخهم، وقد انتابهم الحزن على شيخهم، ولكنهم
 استرجعوا استرجاع المتعين، وهف في المدينة من يقول:
 ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَةُ * ارْجِعِي إِلَى زَيْكَ رَاحِبَةً مَرْضِيَّةً *
 فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي حَسْنِي ﴾^(١).

رحم الله راهب قريش وفقه المدينة الصوام القوام أبا بكر.

(١) سورة الفجر ٢٧/٨٩ - ٣٠